دراسة حول
أشهر روايتين للأطفال
"أليس فى بلاد العجائب"
و"ساحر أوز العجيب"

أ. يعقوب الشارونى

تدور هذه الدراسة حول أشهر روايتين للأطفال فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، هما "أليس فى بلاد العجائب"، التى كتبها المؤلف الإنجليزى "لويس كارول" سنة ١٨٦٥م، ورواية "ساحر أوز" التى كتبها المؤلف الأمريكى "فرانك بوم" عام ١٩٠٠م.

** **تدور قصة "أليس فى بلاد العجائب"**، حول الفتاة الصغيرة أليس، التى دفعها حب الاستطلاع إلى أن تسير خلف أرنب يتحدث ويمسك بساعة ليعرف الوقت. وعندما نزل الأرنب إلى جُحره، وجدت أليس نفسها تنزلق وراءه بعيدًا تحت الأرض إلى "أرض العجائب".

فى هذه الأرض العجيبة تشرب أليس وتأكل بعض الأشياء التى تجعلها قصيرة جدًا لكى تدخل أو تخرج من أبواب صغيرة جدًا، ثم تعود لتصبح طويلة لتتعامل مع شخصيات مثل القطة التى لا يظهر منها إلا رأسها، والدودة التى تدخن النرجيلة، و"الدوقة" التى تتشاجر مع طباختها، ثم تجلس لتتناول الشاى مع الأرنب وفى ضيافته صانع القبعات المجنون والفأرة التى تغالب النوم.

هربت أليس من الثلاثة إلى حديقة بها ملعب الكروكيه الخاص "بملكة ورق اللعب"، أو "ملكة القلوب" المولعة بإصدار الأوامر بقطع رقاب الناس. ثم بدأت أليس تشاهد إحدى المحاكمات وقد جلس على العرش ملك وملكة ورق اللعب، وفجأة تجد نفسها تقوم بدور الشاهد أمام المحكمة.

لكن عندما أصرت الملكة على النطق بالحكم قبل أن يُصْدِر المحلفون قرارهم بالتجريم أو البراءة، ثارت أليس وقالت إن هذه مخالفة كبيرة للعدالة. فثارت الملكة عليها وأمرت بقطع رقبتها. لكن أليس كانت قد أكلت من نبات جعلها تسترد قامتها الأصلية، وأصبحت أمام ملكة ورق اللعب كالعملاق، فصاحت بها : "من الذى يكترث لأحكامكم؟! ما أنتم إلا أوراق لعب".

هنا طار ورق اللعب وأخذ يتساقط على أليس فى حركة هجوم، فأخذت تبعده بيديها وهى تصيح، وإذ بها تجد نفسها راقدة على المقعد الذى كانت تجلس عليه قبل نزولها "أرض العجائب" ورأسها فى حِجْر أختها التى أيقظتها وهى تقول لها : "استيقظى يا أليس فقد طال نومك، وحان موعد عودتنا إلى البيت لتناول الشاى".

**** أما قصة "ساحر أوز العجيب"** ، فتدور حول "دوروثى"، الفتاة الصغيرة التى يحملها إعصار إلى عالم أوز، وهو عالم خيالى يرسمه المؤلف على نحو مُبهر، فتبدأ رحلة البحث عن الساحر أوز لكى يعيدها إلى بيتها.

فى طريقها تلتقى بـ "خيال الحقل "(خيال المآته)، و"الرجل الصفيح" (وهو مُكَوَن من الدروع المعدنية التى كان يرتديها فرسان العصور الوسطى وتغطيهم من الرأس إلى القدمين)، و "أسد" (يعتقد أنه جبان)، فيرافقوها للبحث عن الساحر العجيب، وكل واحد منهم يأمل فى تحقيق أمنية خاصة تغير حياته.

وتبدو الرواية مبنية على "التناقض الذاتى"، فخيال المآتة يبحث عن عقل يفكر به مع أنه كثيرًا ما يقترح الأفكار الذكية طوال الرحلة، والرجل الصفيح أو المعدنى يبحث عن قلب يشعر به مع أنه يبكى متأثرًا من أتفه الأمور، أما الأسد فيبحث عن الشجاعة بالرغم من أنه بشجاعته أنقذ البطلة دورثى عدة مرات. وخلال الطريق يقابلون أربع ساحرات بعضهن تمثلن الخير والمساعدة، والبعض الآخر تمثلن الشر والأذى.

وفى النهاية يصلون إلى المدينة التى يسكن فيها الساحر أوز، لكنهم يكتشفون أنه ليست له قدرات متفوقة ولم يكن إلا رجل استعراض مخادع. كما تكتشف كل شخصية أنها تمتلك فى نفسها كل ما تبحث عنه. ثم تطلب دورثى عن طريق الحذاء المسحور الذى تلبسه أن تعود إلى عمتها التى تعيش فى الريف والبرارى.

وهذه الرواية يُعاد نشرها بانتظام حتى الآن، وتعتبر فى أمريكا أول رواية أمريكية للأطفال، ولا تزال أشهر روايات الأطفال الأمريكية، كما تم إنتاجها فى السينما ثلاث مرات.

**** بين "أليس فى بلاد العجائب" و"ساحر أوز"**

عاش المؤلفان فى فترة واحدة تقريبًا، أحدهما فى إنجلترا هو "لويس كارول" (١٨٣٢-١٨٩٨) مؤلف "أليس"، والثانى فى أمريكا هو "فرانك بوم" مؤلف "ساحر أوز" (١٨٥٦-١٩١٩)

وكل واحد منهما عاش فى فترة تَغيُر لمجتمعه كله، فـ "لويس كارل"، عاش فى الفترة من التى نسميها "عصر العقل" أو "عصر التنوير" الذى ساد أوروبا فى القرن التاسع عشر. أما

"فرانك بوم"، فقد عاش فى أمريكا فى فترة بلورة "الحلم الكبير"، الذى أصبح فيه كل من يعيش فى أمريكا يحلم بالثروة والمجد والحياة فى المدن الكبرى بدلاً من الريف.

والبطلة فى كلٍ من الروايتين أنثى، فتاة صغيرة، "أليس" فى إحداهما، و"دوروثى" فى الثانية . وفى معظم أجزاء الروايتين لا يشاركهما آخرون من البشر، أما بقية شخصيات الروايتين فهى شخصيات خيالية، من أشهرها فى "أليس"، الأرنب الذى يحمل الساعة، والقطة شيشاير التى لا يظهر منها إلا رأسها، وصانع القبعات المجنون، وملكة أوراق اللعب العصبية المجنونة المستبدة (ملكة القلوب)، أما فى "ساحر أوز"، فهناك ثلاث شخصيات خيالية رئيسية هى خيال المآتة، والرجل المعدنى، والأسد الجبان، ثم أربع ساحرات وساحر أوز.

وفى الروايتين، نجد البطلة الصغيرة تقوم برحلة فى عالم خيالى ثم تحاول أن تسعى إليه، بل وجدت نفسها فيه بغير إرادتها. فـ "أليس" تسقط فى جُحر الأرنب لتجد نفسها فى "أرض العجائب" وهى تسعى لاكتشاف حقيقة الأرنب الذى يستخدم ساعة. أما "دوروثى" فقد حملها الإعصار الذى أطاح بها هى وبيت أهلها وطار بها إلى أرض أوز ومدينة الزمرد.

وفى القصتين، كان الاستغراق فى النوم هو وسيلة المؤلف لنقل البطلتين إلى العالم الخيالى.فقد كانت "أليس" الصغيرة تشعر بالملل وهى تجلس على مقعد خشبى فى حديقة بجوار أختها الكبيرة بغير عمل يشغلها، ثم جعلتها شدة الحرارة تشعر بتبلد ونعاس شديد... وفجأة لمحت أرنبًا أبيض يتكلم. أما "دوروثى" فقد كانت داخل البيت الطائر مع الإعصار، ثم "أغمضت عينيها واستسلمت بسرعة إلى النوم"، ولم تستيقظ إلا بعد أن استقر البيت بكل لطف "فى بلد يتفجر بالجمال الخلاب"

وفى القصتين، نجد أن الشخصيات الحقيقية والخيالية التى تُحَرِك الأحداث، هى شخصيات أنثوية نسائية، أما الشخصيات الذكورية، فقد كانت الشخصيات الأنثوية هى التى تقودها كما كانت تفعل "أليس"، أو أن الشخصيات النسائية هى التى كشفت حقيقة زيف الشخصيات الذكورية أو قضت على الشخصيات النسائية الخيالية (الساحرات) مثلما فعلت "دوروثى" مع "الساحر أوز" والساحرتين الشريرتين.

كما أن الصياغة الظاهرة للقصتين تجعل النظرة المتسرعة تتصور أن المؤلف فى كلتيهما يقصد بعمله الأطفال فقط، لكن الكبار أحبوا القصتين مثل الأطفال.

إن القصتين، كما حَمَلَتا التسلية والإبهار والدهشة، فقد حملت الكبار على أن يفكروا بجدية فى الكثير من قضايا عصرهم.

وبعد هذا التشابه بين بعض الأوضاع فى القصتين، نستطبع أن نرى الفارق المتسع بينهما، بسبب اختلاف الواقع الاجتماعى والفكرى فى كل من إنجلترا وأمريكا فى القرن التاسع عشر، وهو ما نتناوله فى الصفحات التالية.

** عن رواية "ساحر أوز"

مع أن المؤلف يعلن بصراحة فى مقالاته، على نحو مباشر، أن قصص الأطفال يجب أن تكون من أجل الترفيه والاستمتاع فقط، فإن القصة المختفية خلف الشكل الظاهر لقصة أوز، تتحدث عن حلم الثروة والمجد الذى كان يتملك خيال الأمريكيين، ثم تؤكد الرواية فى النهاية أن هذا حلم زائف. لقد اكتشفت "دوروثى" أن الساحر ليست له قدرات متفوقة، ولم يكن إلا رجل استعراض محتال ومخادع.

كذلك كان الناس فى تلك الفترة يحلمون — لتحقيق أحلامهم — بالانتقال من المناطق الريفية إلى المدن، لكن القصة تبين أن هذه المدن لا تقدم فى حقيقتها إلا البريق الزائف، فالقصة تذكر أن أهل مدينة الزمرد التى أقامها الساحر أوز، كانوا "فى الظاهر" سعداء وراضين وناجحين. لكن على نحو رمزى تؤكد القصة أن هذا مجرد مظهر خادع، لأن كل من يعيش فى مدينة الزمرد كان "يجب" أن يضع على عينيه — تنفيذًا لقانون — نظارة خضراء محبوس خلفها، بهدف ألا يتمكن من رؤية حقيقة المدينة، بينما الحجة التى يذيعها أوز ليبرر إلزام السكان بوضع النظارة، أن من لا يضع تلك النظارات سوف يصيبه بريق مجد المدينة بالعمى. ولعل قصد المؤلف أن ينتقد "الإعلام" الذى تستخدمه السلطة ليزيف الحقائق، ويضع على العيون نظارات لكى يرى الناس الأمور حولهم على غير حقيقتها.

كما تقدم القصة مغامرة فى سبيل الوصول إلى مدينة المجد والثراء والشهرة، ثم العودة للوطن الريفى مرة أخرى. وبهذا تقدم القصة نقدًا لما كان يُرَوَج له تحت اسم "الحلم الأمريكى" فى الحياة، الذى يُعلى من شأن تحقيق الثروة والمجد والتمتع بسحر المدينة، فقد عادت "دوروثى" فى نهاية الرواية إلى الريف والبرارى التى كانت تعيش فيها قبل أن يقذف بها الإعصار إلى مدينة أوز الخيالية التى تبحث فيها عن مدينة الزمرد، مدينة المجد والثروة المُزَيَفيْن. وعندما تعثر عليها، تفضل العودة إلى بيت عمتها فى الريف والبرارى، بغير أى أسف على هذه العودة، وبغير أية إشارة إلى أنها كانت راغبة فى أن تظل فى مدينة المجد الزائف.

إن المؤلف يصور الريف بلونه الرمادى الكئيب، وأن العمة "إيم" ــ عمة أليس ــ التى تعيش فى الريف، كانت شابة جميلة عندما وصلت إلى هناك، لكن الشمس والرياح انتزعتا البريق من عينيها وأصبحتا منطفئتين. وبمقارنة هذا التصور بلون مدينة الزمرد البراق، يؤكد المؤلف حلم الأمريكيين ــ فى ذلك الوقت ــ للانتقال إلى بريق المدينة. لكن نهاية القصة تؤكد انهيار هذا الحلم عندما عادت دوروثى بغير أى أسف لكى تعيش مع عمتها فى البرارى والريف ولعل المؤلف بهذه النهاية، ينحاز إلى الحياة البسيطة الريفية، وهو انحياز عاطفى من آثار المذهب الرومانسى.

إن ساحر أوز حكاية رمزية تصور فشل أحلام عامة الشعب الأمريكى فى ذلك العصر الذى أطلقوا عليه "العصر الذهبى"، لكنها تبرز أيضًا جمال الوطن من خلال المناظر الطبيعية التى شاهدتها دوروثى فى رحلتها إلى مدينة الزمرد، كما تعزز "قيمة الانتماء للوطن" عندما تعود "دوروثى" إلى موطنها الأصلى حيث تعيش عمتها.

كذلك تؤكد القصة على صورة إيجابية للأنثى. إن دوروثى أنثى قوية بالنسبة إلى فترة بداية القرن العشرين (١٩٠٠)، ورحلتها تمثل نموذجًا للسعى البطولى الذى تقود به فتاة شخصيات ذكورية. إنها أنثى قوية فى عالم ذكورى، فقد تغلبت دوروثى بشجاعة على كل ما تعرضت له من تهديد لحياتها ولاستكمال رحلتها وهى تقود بقية فريقها من الذكور.

إن القصة فى مجموعها تقدم نقدًا قاسيًا، سواء لأحلام الانتقال السريع وبغير مجهود كبير، من الفقر إلى الغنى، وكذلك لحلم الانتقال من المناطق الريفية إلى الحَضَر (الحافل بالزيف والخداع)، وتحبذ العودة إلى الريف لأنه الوطن والموطن.

**عن رواية "أليس فى بلاد العجائب"

مع أن قصة أليس ظلت تُعتبر من قصص الخيال اللامعقول، فإنه يمكن أن نرى أنها محاولة لاستكشاف جوهر الحياة الإنسانية، بتصوير أليس فى رحلة لاكتشاف الذات، والتعرف على ما يشوب المجتمع والتعليم من نقص يعيقان التفكير السليم، فى "عصر العقل" أو "عصر التنوير".

تعيش أليس طوال الوقت فى تناقض بين حياتها قبل أن تسقط فى جحر الأرنب الذى وصلت من خلاله إلى أرض العجائب تحت الأرض، وبين حياتها مع أختها وأسرتها من الطبقة المتوسطة فى العالم الطبيعى.

إنها مثلاً تقارن سقوطها نحو أرض العجائب، بسقوطها أحيانًا على درجات سلم البيت. ثم تكتشف أن هذه مقارنة ساذجة، فما أبعد الفرق بين الأمرين. لقد اكتشفت أليس ذلك عندما قالت : "لابد أننى أقترب من مكان ما بالقرب من مركز الأرض!"

ثم تكتشف أليس أن المعرفة التى حصلت عليها من المدرسة هى معرفة ناقصة وغير كافية، وبذلك تؤكد القصة أن التعليم المدرسى فى ذلك العصر لم يقدم لأليس الفهم اللازم والقدرة لتتعامل مع المواقف الجديدة التى يمكن أن تواجه الإنسان فى حياته، مثلما حدث مع أليس فى أرض العجائب، التى ترمز إلى كل ما هو جديد ومتغير مما يمكن أن يواجه الإنسان فى مستقبل حياته، أى ما يقدمه "عصر العقل والتنوير".

إن أليس تتذكر اصطلاحات "خط عرض" و "خط طول"، لكنها تكتشف أنها لا تفهم المعنى الحقيقى للتعبيرين.

إنها تكتشف دائما أن نوع السلوك الذى تعلمته من الطبقة الوسطى قبل انتقالها إلى عالم العجائب، أصبح غير مناسب لمواجهة احتياجاتها فى هذا العالم الجديد.

إن مؤلف أليس يوضح أن أساليب التفكير التى تعلمتها أليس فى مدرستها ومنزلها، غير قادرة على توقع ما يمكن أن يصادف الإنسان من مواقف جديدة، وبالتالى تكتشف أنها غير مسلحة بأية قواعد للتعامل بنجاح مع أى جديد تقابله.

إنها مثلاً لا تستطيع أن تتوقع أنها لن تصل إلى المفاتيح التى وضعتها على المائدة المرتفعة إذا ما أصبحت صغيرة الحجـــم جدًا، وأنها لو كانت تنبأت أو توقعت - قبل أن ينكمش حجمها - أنها لن تكون قادرة على الوصول إلى تلك المفاتيح، لأمسكت المفاتيح فى يدها، فهذا هو التصرف العقلانى، لكنها لم تفعل. وهكذا شعرت أليس بالإحباط والارتباك بين ما كان يجب أن تفعله وما عجزت عن فعله، وهو ما يمكن أن نسميه "غياب التفكير المستقبلى"، أو عدم القدرة على توقع ردود الأفعال، والتنبه مقدمًا للمواقف الجديدة والاستعداد لمواجهتها.

وكانت النتيجة أنها فقدت القدرة على التركيز، بل فقدت كثيرًا من خبراتها السابقة عندما وجدت أنها لم تعد تنفعها فى عالمها الجديد. حتى وصل بها الأمر أنها وجدت اللغة التى تتحدثها غير كافية للتفاهم فى هذا العالم الجديد، فارتبكت، ولم تعد تتحدث إنجليزية سليمة.

لقد أصبحت خبرات أليس فى العالم العلوى غير مناسبة للحياة فى العالم الجديد، وكان لابد من معرفة جديدة لكى تنجح فى مواجهة الجديد فى العالم الجديد [فى عصر العقل والتنوير]

إنها رواية تقدم رؤية واضحة حول ضرورة حصول الإنسان على معارف جديدة وقدرات عقلية مختلفة، لمواجهة عالم مستقبلى حافل بالمواقف الجديدة. بينما القراءة السطحية السريعة للقصة تجعلنا نتصور أننا أمام نص عجائبى لا معقول مقصود به التسلية وإثارة الدهشة.

إنها قصة تنبه القارئ إلى حلول عصر العقل، الذى يقدم تحديات جديدة، تحتاج إلى طرق تفكير جديدة للنجاح فى مواجهتها.